ثلاث كلمات

أمسكت مفكرته الخاصة وفتحتها من باب الفضول .. كانت فارغة تماما من أي كتابة على عكس ما توقعت . مررت بعيني أقلب الصفحات الخاوية لكن فجأة حبست أنفاسي من الصدمة . ثلاث كلمات فقط! مكتوبة في الصفحة الأخيرة للمفكرة بخط صغير جدا رأيته بالكاد ..

تليف كبدي liver cirrhosis

استسقاء Ascites

حالة متأخرة terminal case

رعشة قوية سرت بأوصالي وأنا أتذكر ذلك الرجل المسكين. سنوات قليلة مرت منذ أن علم لأول مرة بأن ذلك الوباء قد أصابه. خلال تلك الفترة اجتاحت كل خلية من خلايا كبده كالسوس اللعين. نظرت إلى سريره الخاوي منذ البارحة وقد عمته القتامة وكأنما قد حزن على رفيقه . لا أدري في ماذا كان يفكر أستاذ صابر وهو على فراش الموت .. تنهدت بحرارة

منذ عدة أشهر وهو يأتي إلينا بشكل دوري. نضيف علاجا أو نوقف آخر هكذا كان وضعنا معه إلا من مرات قليلة كنا نضطر إلى حجزه بالمستشفى عندما تسوء حالته لتلقى العناية اللازمة. في الأشهر الأخيرة ازداد الوضع سوءا لدخوله في حالة الغيبوبة الكبدية من حين لآخر .

لازلت أتذكر ملامح وجه البائس الممصوص ويديه الباهتة ذات الرعشة الدائمة . كنت ألحظ في عينيه تلك النظرة الخاوية الباحثة في الفراغ عن اللاشيء أو هكذا أوقن في النهاية واستسلمت روحه أخيرا للعبة القدر ..أغلقت المفكرة ووضعتها بجيبي ثم انصرفت أمر على الأسرة المتبقية .,وكأنني أحاول النسيان والهروب من ذلك المحيط الذي ابتلع الجميع. كل حالة أتابعها أتذكره بطيبته ووجهه الهادئ البشوش .."لدينا الآن نسخ كثيرة من عم صابر المسكين " قلتها لنفسي في خفوت وقد انتهيت من آخر حالة اليوم .

لم تكد النوبتجية تنتهي حتى أسرعت خارجا من المستشفى راميا وراء ظهري كل تلك الهواجس التي أبت إلا أن تلاحقني في أي مكان تطئه قدماي. ربما أدرك عم صابر أنه لا أمل في الأطباء وعلاجهم وثرثرتهم وتطميناتهم الدائمة السخيفة فعزم أن يستوضح الأمر لنفسه أو لعله اليأس هو ما دفعه لفعل ذلك .. انتبهت من شرودي عندما مررت بمنزلي ولم ألحظه .. أوقفت السيارة وقد تذكرت أمر الأشعة التليفزيونية التي أجريتها صباحا وطلبت منهم إرسالها للمنزل كي أتفحصها جيدا. خرجت مسرعا وقد نفضت عن ذهني غيوم المرضى وآلامهم وحل محلها القلق الفطري.

دلفت من باب الشقة سريعا حتى وصلت إلى غرفة المكتب الخاصة بي .. لم أعبأ بكل تلك الكتب الطبية المكدسة على سطح المكتب فقط اهتممت بمظروف أبيض كبير يحمل علامة أحد مراكز الأشعة المرموقة . فتحته بسرعة وانتقلت عيناي بتلقائية إلى التقرير الختامي أسفل وصف الأشعة .

لم أفاجأ كثيرا بنتيجة الأشعة تلك . تنهدت في شرود ممسكا مفكرتي الخاصة حيث دونت متابعة لحالتي وتطوراتها بكل دقة . كانت هناك كلمتان بارزتان دون غيرهم تعمدت إيضاحهما. أمسكت قلمي وأضفت كلمة ثالثة بنفس الوضوح .. فتحت النافذة ثم ابتسمت